عُلماء الأصوات العرب سبقوا اللغويين المحدثين في ابتكار نظرية التماثل

الدكتور عبدالعزيز مطر

جامعة الكويت

ظاهرة صوتية ذات اثر فى التطور اللغوي ، اعترف بها ، ورسم حدودها ، وبين اثرها اللغويون المحدثون ، ويمثلهم فى هذا البحث : اللغوي الانجليزي «دانيال جونز» (Daniel Jones) واللغوي العربي الدكتور ابراهيم انيس .

وسيضيف هذا البحث حقيقة جديدة ، هي ان هذه الظاهرة الصوتية قد عرفت ايضا عند اللغويين القدماء : ويمثلهم : سيبويه (ابو بشر عمرو ت 180 هـ) وابن جنى (ابو الفتح عثمان ت 392 هـ).

وسنبدأ اولا بتعريف هذه الظاهرة ، وتحديد معالمها ، وبيان اثرها فى التطور الصوتي عند المحدثين ، ثم نعزز ذلك بعرض ما قاله لغويونا القدماء فى هذا الصدد .

1 ـ التماثل عند المحدثين

عقد دانيال جونز فصلا فى كتابه (1) (An out line of english phonetics) تناول فيه ظاهرة التماثل (Assimilation) واثرها فى تطور اصوات اللغة الانجليزية

وقد عرف التماثل بانه « استبدال صوت بآخر تحت تاثير صوت ثالث يكون مجاورا له فى الكلمة او فى الجملة »

ثم اضاف «دانيال جونز» ان هذا الاصطلاح قد يتسع فيشمل الحالات التى يتم فيها ادغام احد الصوتين فى الآخر ، بحيث يكونان صوتا واحدا ويسمى هذا النوع «التماثل المجمع او الادغام» (Coalescent assimilation)

ويشرح هذا التعريف فى معادلتين على النحو التالي :

1 ـ التماثل العادي : الصوت : A يستبدل بالصوت B تحت تاثير الصوت : C

2 ـ التماثل المجمع (الادغام) : الصوتان : A, C قد اثر كل منهما على الآخر ، وادغما واجتمعا فى الصوت الموحد : B

وتكتفي من امثلته بما ياتي :

يمثل «جونز» للتماثل العادي غير التاريخي بالتغير الذى يطرا على صوت الـ S فى الكلمتين: (Horse, shoe) . عندما تركبان معا نحو Horse-shoe (حدوة الحصان) حيث تنطق الـ S هكذا Sh (ش)

ويمثل للتماثل المجمع (الادغام) Coalescent Assimilation بالكلمتين you don't فانهما تنطقان معا هكذا (Dountshu)

(1) صفحة : 217 الفقرات من : 837 الى 853

كذلك يمثل «جونز» بالكلمتين Roast beef حيث تحولت الـ S الى Z تحت تاثير صوت الـ B المجهور .

ومن العرب المحدثين عقد الدكتور ابراهيم انيس فصلا فى كتابه « الاصوات اللغوية » (2) تحت عنوان : المماثلة Assimilation شرح فيه الظاهرة ، وبين نوعيها الرجعي (3) والتقدمي (4) ومثل لكل منهما ، ثم وضح درجات تاثر الاصوات المتجاورة .

وقال فى شرح المماثلة .. « تتاثر الاصوات اللغوية بعضها ببعض فى المتصل من الكلام ... ومجاورة الاصوات بعضها لبعض فى الكلام المتصل ، هي السر فيما قد يصيب بعض الاصوات من تاثر ».

والاصوات فى تاثرها تهدف الى نوع من المماثلة او المشابهة بينها ، ليزداد مع مجاورتها قربها فى الصفات او المخارج ، ويمكن ان يسمى هذا التاثر بالانسجام الصوتي بين اصوات اللغة . وهذه ظاهرة شائعة فى كل اللغات بصفة عامة ، غير ان اللغات تختلف فى نسبة التاثر وفى نوعه (5)

ومع ان استاذي قد وفى هذه الظاهرة حقها شرحا وتوضيحا ، وتمثيلا وتعديلا ، لحظت انه لم يربط بين ما قرره المحدثون وما ذكره سيبويه وابن جنى ، على ما سنوضحه بعد .

ونمضي الآن فى توضيح هذه الظاهرة ، وتحديد معالمها والتمثيل لها بامثلة من الفصحى واللهجات الحديثة ، ثم نعقب بعرض آراء سيبويه وابن جنى وتحليلها .

اذا تجاور صوتان تجاورا تاما ، بحيث لا يفصل بينهما صوت لين (حركة) وكانا مختلفين فى صفة الجهر والهمس ، او الشدة والرخاوة ، او الاطباق والانفتاح ، فان هذين الصوتين يميلان الى الانسجام بأن يصبحا متماثلين فى الصفة ..

واذا كان هذان الصوتان المتجاوران متقاربين مخرجا او صفة ، او متجانسين ، فان التماثل بينهما قد يصل الى ان يفنى احدهما فى الآخر بادغامه فيه.

وفيما يلي توضيح لهذا التحديد للتماثل ، وبيان درجات التاثر بين الصوتين المتجاورين :

1 ــ الجهر والهمس : يقول الصرفيون ان فاء (افتعل) اذا كانت زايا قلبت التاء دالا ، نحو ازدجر، ازدهى ، ازدان ، ازدلف ...

فما التفسير الصوتي لقلب التاء فى : ازتجر ، وازتهى ، وازتان ، وازتلف وامثالها دالا ؟

فى ضوء ظاهرة التماثل نقول : ان التاء قد جاورت الزاي ، والتجاور هنا تام ، اذ لم يفصل بين الزاي والتاء حركة . ولما كانت الزاي صوتا مجهورا وكانت التاء صوتا مهموسا فان الصوتين يميلان الى تحقيق الانسجام بينهما ، وهنا تاثرت التاء المهموسة بالزاي المجهورة فجهر بها ، وحين يجهر بالتاء تصبح دالا لان التاء والدال من مخرج واحد ، فاصبحت الدال والزاي متقاربين كلاهما مجهور ..

ويسمى التاثر الذى تم فى هذه الامثلة تاثرا تقدميا ، اي ان الصوت الثاني وهو التاء تاثر بالاول وهو الزاي .

وفى قراءة ابن مسعود : (اذا بحثر ما فى القبور) اي بعثر ، يقال ان العين وهي صوت مجهور، جاورت الثاء وهي صوت مهموس ، فتاثرت العين بالثاء فهمست ، وحين تهمس العين تصبح حاء لان الحاء هي النظير المهموس للعين المجهورة ، ويسمى التاثر الذى تم هنا تاثرا تخلفيا اي ان الصوت الاول وهو العين ، تاثر بالثاني وهو الثاء .

وفى اللهجة المصرية تنطق : جهاز تسجيل ، هكذا : جهاس تزجيل .

---

(2) الفصل السابع : من ص 126 الى 148 (ط 3 ــ 1961)
(3) (Régressive)
(4) (Progressive)
(5) الاصوات اللغوية : 126 .

وقد حدث هنا نوعان من التاثر : تاثر الزاي المجهورة في « جهاز » بالشاء المهموسة في «تسجيل»، تاثرا تخلفيا ، فهمس بالزاي فاصبحت سينا . وتاثر السين المهموسة في «تسجيل» بالجيم المجهورة تاثرا تخلفيا ايضا ، فجهر بها ، وحين يجهر بالسين تصبح زايا لانها نظيرها المجهور .

وفي اللهجة المصرية ايضا ننطق : «خمس دقائق » هكذا : خمز دآيء . وننطق «بالنسبة» هكذا : «بالنزبة» . «وعلى حسب وداد قلبي» هكذا: «على حزب» .. والذي حدث هنا تماثل قلب فيه الصوت المهموس وهو السين الى نظيره المجهور وهو الزاي ، بسبب مجاورة السين للصوت المجهور ، وهو الدال ، او الباء ، تحقيقا للانسجام الصوتي .

كذلك ننطق كلمة «اشدق» وكلمة «مشغول» بجهر الشين ، بحيث تقترب من الجيم الشامية (ج) وتفسير ذلك ان الشين ، وهي مهموسة ، جاورت الدال وهي مجهورة ، فجهر بالشين ، ليصبح الصوتان المتجاوران مجهورين .

2 ـ **الشدة والرخاوة** : قال اللغويون ان كلمة ست (للعدد 6) اصلها : سدس ، فقلبت السين تاء فاصبحت سدت ، ثم ادغمت الدال في التاء . وتفسير الحالة الاولى ان السين وهي صورة رخو ، جاورت الدال وهي صوت شديد ، فتاثر الصوت الثاني بالاول تاثرا تقدميا فقلبت السين الى نظيرها الشديد وهو التاء . اما الحالة الثانية فقد فنى فيها الصوت الاول ، وهو الدال ، في الصوت الثاني وهو التاء ، والتاثر هنا تخلفي .

وقوله تعالى : (وجاءت سيارة) قريء بادغام التاء في السين . وتفسير ذلك ان التاء وهي صوت شديد جاورت السين وهي صوت رخو ، فتاثر الصوت الاول بالثاني فقلبت التاء الى نظيرها الرخو وهو السين . ثم حدث الادغام .

وقوله تعالى : (ولولا اذ دخلت جنتك) قريء بادغام الدال في الدال وتفسير ذلك ان الدال وهي صوت رخو جاورت الدال وهي صوت شديد فقلبت الدال دالا ليصبح الصوتان شديدين ، ثم حدث الادغام .

ومن ذلك قلب الباء الشديدة الى نظيرها الرخو ، وهو الفاء ، في قوله تعالى : (ان تعجب فعجب) وبعد القلب حدث الادغام .

3 ـ **الاطباق والانفتاح** : يقول الصرفيون : اذا كانت فاء (افتعل) صوتا من اصوات الاطباق : الصاد او الضاد او الطاء او الظاء ، قلبت تاء الافتعال طاء ، نحو : اصطبر ، واضطرب ، واطرد واظطلم ، وهي صيغ (افتعل) من الصبر ، والضرب ، والطرد ، والظلم ..

والذي حدث هنا هو قلب الصوت المنفتح وهو التاء ، الى نظيره المطبق وهو الطاء ، بسبب مجاورة التاء للصوت المطبق ، وهو الصاد ، او الضاد ، او الطاء او الظاء ..

والتاثير هنا تقدمي ، اي ان الصوت الثاني تاثر بالاول . وانما تم هذا التاثر ، ليتحقق الانسجام بين الصوتين المتجاورين بحيث يكونان مطبقين .

وفي اللهجات نقول : مصطرة اي مسطرة، والماء يصخن ، بقلب السين صادا ، وتفسير ذلك ان الصوت المنفتح وهو السين جاور الصوت المطبق ، وهو الطاء في : مسطرة ، والصوت المستعلي وهو الخاء في : يصخن ، فقلبت السين الى نظيرها المطبق وهو الصاد ، تحقيقا للانسجام بين الصوتين المتجاورين .

4 ـ **انتقال مجرى الهواء** : يقرر علماء الاصوات ان مجرى الهواء مع الاصوات العربية يكون من الفم ، الا في صوتي الميم والنون ، فان مجرى الهواء معهما من الانف ..

وقد ينتقل مجرى الهواء مع اصوات الفم الى الانف ، وقد ينتقل من الانف الى الفم ، تحت ظروف لغوية خاصة ، هي التماثل غالبا ..

ومن امثلة ذلك : ما رواه سيبويه في كتابه : (2/412 :) من قولهم : اصحمطرا ، يريد اصحب مطرا . فقد انتقل مجرى الهواء مع الباء الى الانف ، بسبب مجاورة الميم . وحين ينتقل مجرى الهواء مع الباء الى الانف تصبح ميما ، ثم حدث الادغام . كذلك انتقل مجرى الهواء مع النون من الانف الى الفم في مثل : ان لم تفعل ، حيث ادغمت النون في اللام ، وذلك ان النون ومجرى الهواء من الانف ، جاورت اللام ، ومجرى الهواء معها من الفم ، فقلبت النون لاما ثم حدث الادغام .

5 ـ **انتقال مخرج الصوت** : روى سيبويه في كتابه (2 / 414 :) انه يقال في عنبر : عمبر بالميم

وفي القرءان الكريم : (انبئهم) و (من بعد) اجمع القراء على قلب النون ميما .

وفي لهجة الكويت نقول : السمبوك بدل السنبوك (نوع من السفن الصغيرة او القوارب ذكره الزمخشري في الاساس (قرب) .

والتفسير الصوتي لما حدث هنا : ان النون جاورت الباء ، وتحقيقا للانسجام بينهما انتقل مخرج النون الى مخرج الباء ، وحين تنتقل النون الى هذا المخرج تنطق ميما ، لان الميم كالنون من اصوات الانف، وكلاهما صوت متوسط بين الشدة والرخاوة ، ووجود الميم مجاورة للباء يحقق انسجاما اكثر لان الميم في اصوات الانف ، تناظر الباء في اصوات الفم .

كذلك ينتقل مخرج القاف في لهجة الكويت الى وسط الحنك اذا جاورت صوت اللين الامامي (الكسرة او ياء المد او الفتحة المرققة او الف المد) نحو : جربه ، جدر ، رفيج ، وجاسم ، بدل قربة ، وقدر ، ورفيق ، وقاسم .

وتفسير ذلك : ان صوت اللين الامامي جاور القاف ، ولما كان صوت اللين الامامي صوتا يرتفع معه اول اللسان نحو الحنك ، او يهبط نحو قاع الفم ، فقد جذب مخرج القاف الى الامام ، فخرجت من مخرج الجيم ، لان كليهما صوت شديد مجهور .

كذلك ينتقل مخرج الكاف الى الامام في لهجة الكويت ، اذا جاورت الكاف صوتا من اصوات اللين الامامية ، فيجذبها الى وسط الحنك ، فتخرج من مخرج الشين ، والجيم ، فتخرج صوتا بينهما ، وهو صوت كالجيم الفارسية ، او كصوت (ch) في الكلمة الانجليزية : (Chicken)

وذلك مثل : جبير ، جلب ، باجر ، اي كبير وكلب وباكر .

ففي الحالات الخمس السابقة يبدو اثر ظاهرة التماثل واضحا ، حيث قلب صوت الى صوت يناظره، تحت تاثير صوت ثالث ..

6 ـ الادغام : يعد الادغام اقصى درجات التاثر بين الاصوات المتجاورة حيث يفنى احد الصوتين في الآخر ، بحيث ينطق بالصوتين صوتا واحدا كالصوت الثاني غالبا اي انه تاثر تخلفي ..

فاذا تجاور صوتان متقاربان، او متجانسان نحو: انعت طالبا ، ادغم الصوت الاول وهو التاء في الثاني وهو الطاء ، فنطقت الكلمتان : انعطالبا (سيبويه : 418/2) ونحو : حدثهم اي حدثتهم ، حيث ادغمت الثاء في التاء (سيبويه 420/2)

ونحو خبطه اي خبطته ، حيث ادغمت التاء في الطاء ، والتاثر هنا تقدمي حيث تاثر الصوت الثاني بالاول ففني فيه (سيبويه 2 / 423)

وكذلك قوله تعالى : (وجاءت سيارة) حيث ادغمت التاء في السين .

والتجاور في الامثلة السابقة تام ، حيث لم يفصل بين الصوتين بصوت لين ويسمى هذا الادغام عند القراء : « الادغام الصغير » .

وقد يحدث الادغام مع وجود فاصل هو حركة قصيرة ، وهذا النوع وارد في قراءة ابي عمرو ابن العلاء ، نحو قوله تعالى : (فكلا من حيث شئتما) حيث ادغمت التاء في الشين ، مع وجود فاصل بينهما هو الضمة في (حيث) وكقوله تعالى : (واذا النفوس زوجت) بادغام السين في الزاي مع وجود فاصل بينهما هو ضمة (النفوس) .

7 ـ التماثل بين اصوات اللين : كما يحدث التماثل بين الاصوات الساكنة ، يحدث بين اصوات اللين تحقيقا للانسجام الصوتي بينهما ، هو المسمى عند المحدثين (Vowel harmony)

ويمكن ان نمثل له بما روي ان بني تميم كانوا يقولون : لئيم ، شهيد ، سعيد ، ونحيف ، ورغيف ونخيل ، بكسر اوائلها (6) وما يشيع في بعض اللهجات الحديثة من كسر الاول في نحو سعيد ونشيط وكبير ... ونحو تحية ، بكسر التاء ، تحقيقا للانسجام بين صوتي اللين المتجاورين .

ومن ذلك فتح الميم في مروحة ومبرد في اللهجات الحديثة ، بدلا من كسرها كما تقضي العربية الفصحى في صيغة اسم الآلة .

ب ـ المضارعة عند سيبويه هي التماثل عند المحدثين :

---

(6) كتاب سيبويه : 255/2

تناول سيبويه في اكثر من موضع من كتابه ، ما يحدث من تقريب بين الاصوات المتجاورة سمى هذه الظاهرة المضارعة (: 426/2) وسماها التقريب ايضا (427،259/2) كما تناول اقصى درجات التاثر بين المتجاورين ، اي الادغام (404/2 ـ 426) .

وتتضح نظرية التماثل عند سيبويه في الباب الذي عقده تحت عنوان : « هذا باب الحرف الذي يضارع به حرف من موضعه ، والحرف الذي يضارع به ذلك الحرف وليس من موضعه » (426/2)

ويعني سيبويه بالحرف الذي يضارع به حرف من موضعه : « الصاد الساكنة اذا كانت بعدها الدال ، وذلك نحو : مصدر ، واصدر ، والتصدير »

وبعد ان يبين سيبويه ان ادغام الصاد في الدال، او ابدال الدال حرفا يناسب الصاد كالطاء غير ممكن في هذه الامثلة ، يفسر ما حدث في هذه الامثلة بانه مضارعة الصاد بالزاي ، اي تقريبها منها ، لان الزاي مجهورة كالدال ، فيتحقق بهذا الانسجام بين المتجاورين. وقد فسر سيبويه هذه المضارعة في موضع آخر من كتابه (259/2) اذ قال ، وهو يعلل امالة الالف الى الياء بسبب الكسرة ، بانها تقريب بين الحرفين : « ارادوا ان يقربوها منها كما قربوا في الادغام الصاد من الزاي حين قالوا صدر ، فقربها من الزاي والصاد التماس الخفة ، لان الصاد قريبة من الدال فقربها من اشبه الحروف من موضعها بالدال » .

ولكن سيبويه في المثال الاخير : صدر ، لم يقيد الصاد بانها ساكنة ، كما جاء في النص الذي عالج فيه المضارعة (426/2) .

ومما يؤيد ان ما حدث في الصاد هو تقريبها من الزاي قول سيبويه « ولم يبدلوها زايا خالصة كراهية الاجحاف بها للاطباق » ثم يعقب سيبويه بانه سمع العرب الفصحاء يجعلون الصاد زايا خالصة اي بدون اطباق ، وينظر لذلك بذهاب الاطباق في الادغام ، ويعني بذلك قولهم « افحسالما ، اي افحص سالما » (418/2)

اي انهم يقولون في التصدير : التزدير ، وفي الفصد ، الفزد ، وفي اصدرت : ازدرت .

ويعلل سيبويه المضارعة في حالتي التقريب من الزاي ، او ابدال الصاد زايا بما نسميه « الانسجام الصوتي » ، فيقول : « وانما دعاهم الى ان يقربوها ويبدلوها ان يكون عملهم من وجه واحد، وليستعملوا السنتهم في ضرب واحد ، اذ لم يصلوا الى الادغام (الذي هو اقصى حالات التاثر بين الاصوات المتجاورة) ولم يجسروا على ابدال الدال صادا ، لانها ليست بزيادة كالتاء في افتعل (اي ان الصوت الاول هو الذي تاثر بالثاني وهو التاثر التخلفي) .

واذا كان اللغويون المحدثون يشترطون لتاثر احد الصوتين بالآخر ان يكون التجاور تاما بان يكون الاول مشكلا بالسكون (7). فان سيبويه قد نص على ذلك عندما قال : « فاما الذي يضارع به الحرف من مخرجه فالصاد الساكنة ، اذا كانت بعدها الدال» (426/2) كما يتضح ذلك من امثلة : التصدير ، اصدر ، الفصد ، اشدق ، اشدر (اي اجدر)، اجدمعوا ، واجدرءوا (اي اجتمعوا ، واجترءوا) .

وان كان سيبويه قد خالف ذلك عندما قال في موضع آخر : ان في (صدر) تقريبا من الزاي (259/2). مع ان الفاصل هنا حركة .

ولكن شرط الابدال عند سيبويه الاتحرك الصاد، فقد قال بعد ان ذكر ان بعض العرب يبدل الصاد في التصدير والفصد زايا خالصة : « فان تحركت الصاد لم تبدل ، لانه قد وقع بينهما شيء » يعني الحركة الفاصلة بين الحرفين .

وهذا يدل على فهم سيبويه لمعنى التجاور ، وعلى انه يرى ان الحركة تقع بعد الحرف .

ولكن هناك استثناء من شرط سكون الحرف الاول في حالة المضارعة ، اذ لحظ سيبويه ان العرب قد يضارعون في حالة الفصل بالحركة ، نحو صدقت . ثم قال « والبيان فيها احسن » (427/2) واورد استثناء آخر من شرط التجاور اذ قال : « وربما ضارعوا بها وهي بعيدة نحو مصادر ، والصراط ، لان الطاء كالدال » (يظن سيبويه ان المضارعة خاصة بالدال ، ولهذا يشبه بها الطاء حين وجد مضارعة في الصراط) ثم اورد سيبويه ثلاثة امثلة اخرى تمت فيها المضارعة مع التجاور التام

1 ـ اشدق ، حيث تجهر الشين ، وهذا معنى قول سيبويه « فتضارع بها الزاي » وسبب الجهر

(7) الدكتور ابراهيم انيس : الاصوات اللغوية : 131 .

هنا ان الشين وهي صوت مهموس جاورت الدال ، وهي صوت مجهور ، فجهر بها لتحقيق الانسجام والتقارب ، وحين يجهر بالشين تقترب من الزاي .. ولما كانت الزاي من مخرج غير مخرج الشين فقد عبر عن ذلك سيبويه في عنوان هذا الباب ، حين قال « والحرف (الشين) الذي يضارع به ذلك الحرف (الزاي) وليس من موضعه »

2 ـ اجدر ، حيث تنطق الجيم قريبة من الزاي ، اي جيما شديدة التعطيش ، وكتبت عند سيبويه : اشدر ولما كانت الجيم والدال من الاصوات المجهورة ولم يجد سيبويه تفسيرا لهذه المضارعة ، علل ذلك بالقياس على المضارعة مع الشين في اشدق ، اذ قال « وانما حملهم على ذلك انها (الجيم) من موضع حرف قد قرب من الزاي» يعني الشين في اشدق .

3 ـ اجدمعوا اي اجتمعوا ، واجدرءوا ، اي اجترءوا . والذي حدث هنا ان التاء وهي صوت مهموس جاورت الجيم ، وهي صوت مجهور ، فتأثرت بها تأثرا تقدميا (الثاني بالاول) فجهر بها اي ابدلت دالا .

وفي موضع آخر يفسر سيبويه ، في ضوء المضارعة والتقريب ، قول العرب فيما كان على وزن مفتعل من الصبر : مصطبر : فيقول « فابدلوا مكانها اشبه الحروف بالصاد ، وهي الطاء ، ليستعملوا السنتهم في ضرب واحد من الحروف ، وليكون عملهم من وجه واحد ، اذ لم يصلوا الى الادغام » (421/2) ومعنى قوله « ليستعملوا السنتهم في ضرب واحد » ان نطق الصاد وهي مطبقة لا يلائم نطق التاء ، وهي مرققة فابدلوا مكان التاء طاء للانسجام بين الصوتين المطبقين .

ومن المضارعة عند سيبويه ايضا : قلب السين صادا اذا كانت بعدهما القاف في كلمة واحدة ، عند بني العنبر ، ويعلل ذلك بقوله : « ابدلوا من موضع السين اشبه الحروف بالقاف ليكون العمل من وجه واحد ، وهي الصاد» (427/2) ثم قاس على ذلك الخاء والعين « لانهما بمنزلة القاف ، وهما من حروف الحلق بمنزلة القاف من حروف الفم ، وقربهما من الفم كقرب القاف من الحلق » ثم قاس الطاء على القاف ، لانها في التصعد مثل القاف (428/2).

اي ان السين لما جاورت واحدا من هذه الاصوات المستعلية تأثرت به ففخمت ، وحين تفخم السين تبدل صادا . ولكن سيبويه يبين ان « الاعرف الاكثر الاجود في كلامهم ترك السين على حالها وانما يقولها من العرب بنو العنبر » (428/2).

وفي ضوء المضارعة كذلك يفسر سيبويه قول العرب : ست (اي العدد 6) ويذكر ان اصلها سدس. ويبين ان العرب لم يدغموا الدال : « كرهوا ادغام الدال فيزداد الحرف سينا ، فتلتقي السينات ، ولم تكن السين لتدغم في الدال .. **فابدلوا مكان السين** اشبه الحروف بها من موضع الدال ، ليلا يصيروا الى الثقل مما فروا منه اذا ادغموا ، وذلك الحرف التاء ، كأنه قال سدت ، ثم ادغم الدال في التاء » (428/2)

ويدل على تعمق سيبويه في فهم سر المضارعة واستخدامها في تفسير التغير الصوتي قوله في تعليل قول بعض العرب : يستيع بدل يستطيع : « ان شئت قلت : ابدلوا التاء مكان الطاء ليكون ما بعد السين مهموسا مثلها ، كما قالوا : ازدان (اصلها : ازتان) ليكون ما بعدها (الزاي) مجهورا » (429/2) .

اما المضارعة في الحركات (اصوات اللين) فتبدو عند سيبويه فيما يلي :

1 ـ الامالة (259/2) قال : « فالالف تمال اذا كان بعدها حرف مكسورة ، وذلك قولك عابد ، وعالم ومساجد،ومفاتيح،ومذافر،وهابيل. **وانما امالوها للكسرة التي بعدها ، ارادوا ان يقربوها منها كما قربوا في الادغام الصاد من الزاي** » اي ان الغرض من الامالة هو الانسجام بين اصوات اللين .

ويؤيد ذلك قوله في باب ما تقلب فيه الواو ياء اذا سكنت وقبلها كسرة (نحو ميزان وميعاد) « فكان العمل من وجه واحد اخف عليهم (وجود حركة الامالة بعد الكسرة) .. كما انهم اذا ادنوا الحرف من الحرف كان اخف عليهم ، نحو قولهم : ازدان واصطبر » (357/2)

2 ـ في تفسير باب فعل يفعل (مثل فتح يفتح) الذي ورد في الافعال التي عينها او لامها من حروف الحلق (ا ـ هـ ـ ع ـ ح ـ غ ـ خ) قال : « وانما فتحوا هذه الحروف لانها سفلت في الحلق ، فكرهوا ان يتناولوا حركة ما قبلها بحركة ما ارتفع من الحروف ، فجعلوا من الحرف الذي في حيزها

وهو الالف » (253/2) اي ان الفتح لمناسبة حروف الحلق لان الفتحة بعض الالف ، ومخرج الالف (عنده) من اقصى الحلق مع الهمزة والهاء (405/2)

وهكذا نجد ال (Assimilation) وال (Vowel harmony) اي التماثل او المضارعة او التقريب ، والانسجام بين اصوات اللين ، واضحة جدا في فكر سيبويه (ت 180 هـ) .

الادغام الاصغر والتقريب عند ابن جني

عالج ابن جني ظاهرة «التماثل او المضارعة» تحت عنوان «الادغام الاصغر» وتعريفه وامثلته تنطبق على المضارعة عند سيبويه : يقول ابن جني في الخصائص (141/2) في تعريفه « واما الادغام الاصغر فهو تقريب الحرف من الحرف وادناؤه منه ، من غير ادغام يكون هناك ، وهو ضروب .»

وقد اورد ابن جني من ضروب هذا التقريب : قلب تاء الافتعال طاء اذا كانت الفاء صادا او ضادا او طاء او ظاء (141/2) وقلبها دالا اذا كانت الفاء زايا او دالا او ذالا (142/2) وقلب السين صادا اذا وقعت قبل الحرف المستعلى فتقرب منه (142/2) واورد ايضا تقريب الصاد من الزاي لمجاورة الدال ، في مصدر، والتصدير، وقول العرب في مثل « لم يحرم من فزدله» اي من فصد له . ويقدم تفسيرا علميا في ضوء التقريب ، او الادغام الاصغر ، فيقول في هذا المثل « اصله : فصد له ، ثم اسكنت العين ، على قولهم في ضرب : ضرب (بتسكين الراء بدل خفضها) وقوله (القطامي) :

ونفحوا في مدائهم فطاروا

فصار تقديره : فصدله ، فلما سكنت الصاد فضعفت به ، وجاورت الصاد ـ وهي مهموسة ـ الدال ـ وهي مجهورة ـ قربت منها بان اشمت شيئا من لفظ الزاي المقاربة للدال بالجهر (الخصائص: 144/2) .

ولو ان لغويا محدثا فسر التماثل في هذه الحالة لما خرج عما قاله ابن جني في هذا التفسير.

كذلك يفسر ابن جني ما فسر سيبويه من قبل قول العرب : ست (العدد 6) واصلها سدس (الخصائص : 145/2) .

ولم ينس ابن جني التقريب في الحركات، ونمد من ذلك عنده الامالة « انما وقعت في الكلام لتقريب الصوت من الصوت» اي الفتحة الى الكسرة (141/2) من ذلك عنده الامالة « انما وقعت في الكلام لتقريب العرب : شعير وبعير ورغيف ، بكسر اوائلها (143/2) . وقولهم : فعل يفعل (باب فتح) مما عينه او لامه حرف حلقي ، نحو سال يسال وقرا يقرا .. « وذلك انهم ضارعوا بفتحة العين في المضارع جنس حرف الحلق ، لما كان موضعا منه مخرج الالف التي منها الفتحة » (143/2).

وقد تحدث اللغويون واصحاب المعجمات عن المضارعة والتقريب ، وفسروا في ضوئها كثيرا من التطور الصوتي ، ولكن ما قالوه لم يخرج عما وضع اسسه ، وبين حدوده ، سيبويه وابن جني .

اليس لنا ان نقول ان علماء الاصوات العرب القدماء قد سبقوا اللغويين المحدثين في كشف اسرار التفاعل بين الاصوات المتجاورة ، وابتكار نظرية التماثل Assimilation ! بلى !.